نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الرابع

عناصر المحاضرة:

1. إحاطة رعاية الله بنبيه ﷺ وتربيته وإعداده لحمل الرسالة.
2. حفظ الله لحياة نبيه ومصطفاه ﷺ.
3. حكمة الله تعالى وتربيته لنبيه ﷺ.
4. مقدمات تبشر بالنبوة.
5. بدء نزول الوحي.

إحاطة رعاية الله بنبيه ﷺ وتربيته وإعداده لحمل الرسالة:

إن الله امتن على هذه الأمة برسول منهم، من أشرفهم نسباً، وأحسنهم خلقاً، اختاره الله للرسالة، وتعهده من ولادته بالرعاية، وهو -صلى الله عليه وسلم - وإن اتصف بالبشرية إلا أنه في أكمل حالاتها وأحسن درجاتها، وقد اختصه الله واصطفاه بالرسالة والنبوة، ولذا كانت العصمة والرعاية الربانية الخاصة في هذا الجانب؛ فعصم -صلى الله عليه وسلم- مما يمكن أن يمس مقام النبوة، فهو - صلى الله عليه وسلم - وإن كان بشرًا مثلنا في طبائعه وغرائزه وخصاله البشرية، إلا أنه اختص من بيننا بأن اجتباه الله واصطفاه بالنبوة والرسالة فأوحي إليه.

ولهذا ظهر تأثير مقام النبوة واضحًا على حياته، ومنذ صغره -صلى الله عليه وسلم-، فقد حفت به كرامة النبوة، فظهرت معجزاتها، بل ظهرت معجزاته -صلى الله عليه وسلم- وهو في بطن أمه، ومن عجائب متطلبات هذا المقام العظيم -مقام النبوة- أن الله تعالى ربى نبيه محمدًا -صلى الله عليه وسلم- منذ صغره، وأدبه وأحسن تأديبه، فرباه على اليتم صغيرًا، فنشأ يتيم الأبوين، ثم رباه برعي الغنم، وفي هذين من الدروس العظيمة ما فيهما، فيهما تدريب له على تحمل المشاق، وتعويد له على

صعب الحياة وعنائها، كما أن في رعي الغنم تدريباً له -صلى الله عليه وسلم- على سياسة الخلق وفن القيادة، ولذلك (مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ)، كما قال -عليه الصلاة والسلام-.

ثم اشتغل-صلى الله عليه وسلم- بالتجارة في مرحلة شبابه، هذه دروس لجميع الشباب، يُتْم ورعي غنم وبيع وشراء، مراحل يتربى فيها الشاب، ويتعلم ويتخرج من مدرسة الحياة، كما كان -عليه الصلاة والسلام-، رحل في التجارة رحلة، وفي هذا -أيضًا- تدريب له على السياسة وعلى تصريف الأمور، ورعاية المصالح وفن التعامل مع الناس بل حتى وعلى معركة الحياة، حتى إذا بلغ -صلى الله عليه وسلم- خمسًا وعشرين سنة تزوّج من خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية -رضي الله عنها- التي أرسلت إليه سرًّا تخطبه لنفسها؛ لما رأت ما يُخص به -صلى الله عليه وسلم- من إرهاصات النبوة، فعلمت من كمال عقلها وحكمتها وذكائها أنه سيكون له شأن كريم وعظيم؛ فخطبته لنفسها سرًّا -رضي الله عنها وأرضاها-، ونالت بذلك هذه الكرامة العظيمة الجليلة، وكانت سيدة من سادات قريش ذات ذكاء وعقل وحكمة.

حفظ الله لحياة نبيه ومصطفاه ﷺ:

حفظ الله عزوجل نبيه ﷺ من جميع أدران الجاهلية، وظلت حياته ﷺ إلى البعثة حياة فاضلة طاهرة، مع أنه شب في مجتمع جاهلي في عقيدته، جاهلي في أخلاقه، ولكن الله تعالى حفظه من جميع مساوئ الجاهلية لما يريده سبحانه له من الكرامة والرسالة، حتى صار أحسن قومه خُلقاً، وأفضلهم مروءةً، وَأَكْرَمَهُمْ حَسَبَاً، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثَاً، وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً، وأحسنهم رأياً، وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمَاً، وأعلاهم فكراً، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، حتى صار وحده معروفاً بالصادق الأمين، ولم يتأثر بما حوله من الأفكار والأفعال والرذائل الجاهلية.

وقد ذكر الله عزوجل في كتابه ما مَنَّ به على عبده ورسوله محمد ﷺ من أنواع الكرامات والأخلاق، والهبات التي خصه ربه بها، فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم/٤].

❁وقال سبحانه: {وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)} [الضحى/١-٨] .

❁وقال سبحانه: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء/١١٣] .

📝فنشأ ﷺ سليم العقيدة، صادق الإيمان، عميق التفكر، غير خاضع لأباطيل الجاهلية، فما عُرف عنه أنه سجد لصنم قط، أو تمسح به، أو ذهب إلى كاهن أو عرَّاف، وبغضت إليه عبادة الأصنام، والتمسح بها. عن عروة بن الزبير قال: حدثني جارٌ لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «أَيْ خَدِيجَةُ، والله لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ أَبَدًا، والله لَا أَعْبُدُ الْعُزَّى أَبدًا» أخرجه أحمد. وعن زيد بن حارثة رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ صَنَمٌ مِنْ نُحَاسٍ يُقَالُ لَهُ إِسَافٌ، أَوْ نَائِلَةُ يَتَمَسَّحُ المُشْرِكُونَ بِهِ إِذَا طَافُوا، فَطَافَ رَسُولُ الله ﷺ، وَطُفْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا مَرَرْتُ مَسَحْتُ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَا تَمَسَّهُ، قَالَ زَيْدٌ: فَطُفْنَا فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَأَمَسَّنَّهُ حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَكُونُ فَمَسَحْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَلَمْ تُنْهَ؟ قَالَ زَيْدٌ: فَوَ الله مَا اسْتَلَمَ صَنَمًا حَتَّى أَكْرَمَهُ الله بِالَّذِي أُنْزِلَ عليه". أخرجه النسائي في السنن الكبرى.

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يأكل ما ذُبِح على النصب، ـ النصب ": حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها، ويذبحون لها ـ ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل، فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما: (أن النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح (واد في طريق التنعيم إلى مكة) قبل أن ينزل على النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ الوحي، فقدمت إلى النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ سفرة

(طعام) فأبَى أن يأكل منها، ثم قال زيد : إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه ، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء ، وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ـ إنكارا لذلك وإعظاما له ـ) رواه البخاري .

ومن حفظ الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفظه من أن تبدو عورته أو يظهر عريانا، فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: (أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ يَنْقُلُ معهُمُ الحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وعليه إزَارُهُ، فَقالَ له العَبَّاسُ عَمُّهُ: يا ابْنَ أخِي، لو حَلَلْتَ إزَارَكَ فَجَعَلْتَ علَى مَنْكِبَيْكَ دُونَ الحِجَارَةِ، قالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ علَى مَنْكِبَيْهِ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عليه، فَما رُئِيَ بَعْدَ ذلكَ عُرْيَانًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ) رواه البخاري.

ويتحدث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مظاهر حفظ الله له ـ قبل النبوة وفي صغره ـ من نزعات الشباب ودواعيه فيقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به ، إلا مرتين من الدهر ، كلتيهما يعصمني الله منهما ، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام أهله يرعاها : أبصر إلي غنمي حتى أسمر (السَمَر هو الحديث ليلا)هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان ، قال : نعم ، فخرجت ، فجئت أدنى دار من دور مكة ، سمعت غناء وضرب دفوف ومزامير ، فقلت : ما هذا ؟ ، فقالوا : فلان تزوج فلانة ، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش ، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا حر الشمس فرجعت فقال : ما فعلت ؟ ، فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ففعل ، فخرجت ، فسمعت مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي ، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، ثم رجعت إلى صاحبي فقال : فما فعلت ؟ ، قلت : ما فعلت شيئاً ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فو الله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته) رواه ابن حبان .

وحفظ الله نبيه ﷺ من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فلم يشرب خمراً قط، ولا اقترف فاحشة قط، ولا شارك في ميسر أو لهو عابثٍ قط، أو جلس مجلساً دنيئاً قط، وبُغِّضَ إليه ﷺ قول الشعر، فلم يُعرف عنه قط أنه قال شعراً، أو أنشأ قصيدة؛ لأن ذلك لا يتلائم ومقام النبوة، وقد نزهه الله عن قول الشعر، فقال :{وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ} [يس/٦٩] .

ومع هذا فقد كان ﷺ يتذوق ما في الشعر من جمال وحكمة، ويسمعه من غيره، ولا عجب فهو القائل ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» رواه البخاري .وهو القائل ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشعرِ حكمةً» البخاري.

وكان ﷺ معروفاً في الجاهلية بالأمانة، لا يأتمنه أحد على وديعة إلا أداها له، ولا يأتمنه أحد على سر إلا وجده عند حسن الظن به.

وكان ﷺ معروفاً بالصدق، شهد له بذلك العدو والصديق، ولما بعثه الله عزَّ وجلَّ إلى الناس كافة، وأمره أن ينذر عشيرته الأقربين، صار ينادي بطون قريش، فلما حضروا، قال لهم:«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَـخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. متفق عليه .

وكان ﷺ كريماً، وصولاً للرحم، عطوفاً على الفقراء، يُقري الضيف، ويعين الضعيف، ويُواسي البائس، وقد وصفته بمكارم الأخلاق زوجه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها عند بدء الوحي إليه، لما جاء إليها خائفاً قالت له: أَبشِرْ، فوالله لَا يُـخْزِيكَ الله أَبَدًا، والله إِنَّكَ لَـتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْـحَدِيثَ، وَتَـحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ. متفق عليه .

حكمة الله تعالى وتربيته لنبيه ﷺ:

كان ﷺ يكره مخالفة دين إبراهيم ﷺ، فقد كان يقف مع الناس قبل البعثة بعرفات ولا يصنع ما كانت تصنع قريش من الوقوف في الحج بالمزدلفة، وعدم الوقوف مع الناس بعرفات تمييزاً لهم عن غيرهم.

عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: أَضْلَلْتُ بَعِيرًا لي يَوْمَ عَرَفَةَ، فَخَرَجْتُ أَطْلُبُهُ بِعَرَفَةَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَاقِفًا مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَةَ. متفق عليه.

وكان ﷺ قبل البعثة يجد في نفسه قلقاً غامضاً، لا يعرف مصدره ولا مصيره، ولم يكن يخطر بباله ما سوف يكرمه الله به من الوحي والرسالة، ولم يحلم بذلك في يوم من الأيام، كما قال الله سبحانه: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الشورى/٥٢]

ولم يكن ﷺ يستشرف للرسالة، ولا يحلم بها، ولا فكر بها، وإنما كان الله سبحانه يلهمه الخلوة للعبادة، تطهيراً له، وإعداداً روحياً لتحمل أعباء الرسالة :{وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ} [القصص/٨٦] .

وكان من حكمة الله تعالى وتربيته لرسوله ﷺ أن نشأ ﷺ أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، ليكون أبعد عن تهم الأعداء، وظِنَّة المفترين، كما قال سبحانه: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [العنكبوت/٤٨]

وشرفه ربه بالأمية الأرضية، ورفعه بالعلمية السماوية، كما قال سبحانه: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف/١٥٨].

وقد كان ﷺ معصوماً قبل الوحي وبعده من جميع الفواحش ومنكرات الأخلاق، ومن الرذائل والسفه والكذب، وبذاءة اللسان، وغيرها من مساوئ الأخلاق، ومتحلياً بأحسن الأخلاق والآداب: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الجمعة/٢] .

لقد عاش ﷺ في شبابه متميزاً بالأخلاق الحسنة، وسلامة الفطرة الكارهة للوثنيات والشركيات والخرافات، فنشأ على فطرة التوحيد التي فطر الله الناس عليها نزيه القلب، طاهر القالب حسن السلوك، عظيم الأخلاق وكل هذه الأمور تمهد للرسالة العظمى التي سيحملها ويُحملها غيره صلوات الله وسلامه عليه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة/١٢٨].

لقد نشأ ﷺ متمتعاً بجميع خصائص البشر فهو شاب كسائر الشباب، وله عواطفه وميوله، يخالط الناس، ويتعامل معهم ومع هذه الميول البشرية، فإن الله قد عصمه من جميع مظاهر الانحراف التي تَحُول بينه وبين الحق والعدل والفضيلة لأن الله يُعدُّه لأعظم رسالة جاءت إلى أهل الأرض :{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة/٣٣] .

فكانت حياته ﷺ قبل البعثة أحسن حياة، وأجمل حياة، وأطهر حياة، وأكرم حياة، وأحفلها بمعاني الإنسانية، ثم نبأه الله سبحانه وبعثه إلى الناس فتمت هذه الفضائل على أحسن وجه، وما زالت تسمو فروعها، وترسخ أصولها، في كل مكان وزمان توحيد وإيمان، وفضل وكمال، وهدى ونور، وحق وخير، وعبادة ودعوة، وأجر وثواب هي مجموع حياة نبينا ﷺ الذي أكرمنا الله بالاقتداء به: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب/٢١].

مقدمات تبشر بالنبوة: في الأيام الأخيرة قبيل البعثة بدأت تلوح آثار النبوة على النبي ﷺ .

ومن أبرز هذه العلامات والآثار:

❶حجب الشياطين عن استراق السمع من السماء: لمَّا تقارب أمر رسول الله ﷺ، وحضر مبعثه، حُجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها لاستراق السمع، كما أخبر الله عن الجن بقولهم :(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) [الجن/٨-١٠]. ومن رام استراق السمع من الجن رُمي بالشهب :(وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9) [الجن/٩].

❷الرؤيا الصادقة: أول ما بُدئ به النبي ﷺ من النبوة الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤياً في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، حتى مضى على ذلك ستة أشهر، ثم بدأ ينزل الوحي عليه ﷺ.

❸حبه ﷺ للخلوة :حين تقاربت سن النبي ﷺ من الأربعين حبب الله إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من الخلوة وحده، فكان ﷺ يهجر مكة كل عام، ليقضي شهر رمضان يتحنث بغار حراء، وكان يتزود لخلوته، ويقيم الأيام والليالي ذوات العدد .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ. متفق عليه.

وكان النبي ﷺ إذا قضى خلوته من شهره ذلك، أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة،

فيطوف بها سبعاً، أو ما شاء الله تعالى، ثم يرجع إلى بيته، وظل النبي ﷺ على ذلك ثلاث سنوات إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته بغار حراء.

❹تسليم الحجر والشجر على النبي ﷺ :حين أراد الله تعالى كرامة نبيه محمد ﷺ كان إذا خرج لحاجته لا يمر بحجر ولا شجر إلا وقال :السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت فلا يرى إلا الشجر والحجر، وظَل كذلك يسمع ويرى حتى جاءه جبريل بالوحي وهو بغار حراء في شهر رمضان.

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ». أخرجه مسلم.

❺سماعه ﷺ الصوت، ورؤيته الضوء :

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «إِنِّي أَرَى ضَوْءًا، وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بي جُنُونٌ« قَالَتْ: لَمْ يَكُنِ الله لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ الله، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: إِنْ يَكُنْ صَادِقًا فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلَ نَامُوسِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأُعَزِّرُهُ، وَأَنْصُرُهُ، وَأُومِنُ بِهِ. أخرجه أحمد.

قال النووي: (يسمع الصوت ويرى الضوء) قال القاضي: (أي: صوت الهاتف من الملائكة، ويرى الضوء، أي: نور الملائكة، ونور آيات الله، حتى رأى الملك بعينيه، وشافهه بوحي الله) ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (104/15).

سيرته ﷺ من بعثته إلى هجرته

بدء نزول الوحي

لما دنت بعثة النبي ﷺ؛ انتشر في الأمم أن الله سبحانه سيبعث نبياً في هذا الزمان، وأن ظهوره قد قرب.

✉فكان أهل الكتاب يعرفون ذلك من كتبهم، كقصة ابن الهيبان، الذي قدم من الشام إلى المدينة قبيل البعثة، وقال لليهود أن سبب قدومه للمدينة توقع خروج نبي فيتبعه، ودعا اليهود إلى اتباعه، لما يعرفه من صفته وصفة زمانه في التوراة.

✉وقصة سلمان الفارسي الذي جاء من بلاد فارس يبحث عن الدين الحق، فأقام بالشام، ثم دله الأحبار على مكان بعثة محمد ﷺ، وقرب زمانه.

✉وأما غير أهل الكتاب من الأمم فكانت ترى في الآيات المنذرة ما تستدل به على قرب هذا المبعث.

📝قال د إبراهيم الدويش: فلما بلغ -صلى الله عليه وسلم- أَشُدَّهُ وبلغ أربعين سنة، وفي هذا السن يكتمل العقل البشري والنمو البشري، لما بلغ هذه المرحلة من عمره انبعثت عليه أنوار النبوة وهو منفرد بغار حراء يتعبد لربه -عز وجل-، وكان قبل البعثة يخلو بنفسه كثيرًا في ذلك الغار، وفي هذا درس عظيم ، إن من أعظم وسائل الثبات على دين الله، من أعظم وسائل زيادة الإيمان في القلب الخلوة بالله، الخلوة: أن يخلو الإنسان بنفسه، هذا السبب العظيم الذي غفلنا عنه كثيرًا، غفلنا أن ساعة نخلو بها بظلمة ليل أو بحجرة أو بخلاء أو فوق رأس جبل أو تحت شجرة في وقت غروب أو شروق، كم يزداد في ميزان التأمل والتفكر وإطلاق العنان في الخيال، خيال الفكر البشري والإيماني والراحة النفسية، لينبعث النشاط من جديد، ويزداد الإيمان في قلب الإنسان ويخوض الحياة بعد هذه الدورة النفسية في ساعة خلوة لله، ما أعظم أن تخلو في ساعة جمعة قبل الغروب بنفسك مع الله -عز وجل-، تأمل، تفكر، إن الطب الحديث اكتشف اليوم العلاج بالخلوة، الدواء بالخلوة، وقد اكتشفه الحبيب -عليه الصلاة والسلام- في الساعات التي كان يخلو فيها في غار حراء، يتعبد الله قبل بعثته -عليه الصلاة والسلام-.

✉وكان ﷺ يحب الخلاء، ويُكثر من الانفراد عن قومه؛ لما يراه عليهم من الضلال المبين، من عبادة الأوثان، ومخالفة الفطرة، ولما في الخلوة من صفاء النفس، وهدوء البال، والتفكر في ملكوت الله، وعظيم خلقه، ومظاهر قدرته، فكان يخلو بغار حراء في رمضان من كل عام.

✉وقويت محبته ﷺ للخلوة عند مقاربة إيحاء الله له، وإذا عاد ﷺ من مجاورته في الغار بدأ بالطواف بالبيت، ثم انصرف إلى منزله،وقد كانت خلوته ﷺ في الغار قبل البعثة، يتعبد لله فيها بما يفتح الله عليه .

✉أما بعد البعثة فقد فرض الله عليه خلوة من نوع آخر، هي التهجد وقيام الليل، كما قال سبحانه: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً} [الإسراء/٧٩].

✉ولما كَمُل للنبي ﷺ أربعون سنة، وخرج إلى حراء كما كان يخرج في شهر رمضان، أتاه جبريل ﷺ بأمر الله عزَّ وجلَّ، فأشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله تعالى بالرسالة، وبعثه سبحانه رحمة للعالمين إلى يوم الدين.

✉وكانت بعثته ﷺ في يوم الاثنين من شهر رمضان، وأول ما أكرمه الله بنبوته أنزل عليه القرآن كما قال الله سبحانه: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ (185)} [البقرة/١٨٥].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاثْنَيْنِ، قَالَ: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدتُّ فيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فيهِ» أخرجه مسلم.

وبعث الله نبيه ﷺ وعمره أربعون سنة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بُعِثَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكُثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بالهِجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ. متفق عليه.

المراجع:

❶السيرة النبوية بين المعرفة والواجب في ضـــوء القــرآن والســـنة.

❷الموسوعة التاريخية: الدرر السنية.

❸السيرة النبوية د إبراهيم الدويش.